البناء التركيبي في حِكَم الإمام علي عليه السلام

الأستاذ المساعد الدكتور

رزاق عبد الأمير مهدي الطيّار

(جامعة الكوفة – كلية التربية الأساسية)

البناء التركيبي في حِكَم الإمام علي (عليه السلام)

الأستاذ المساعد الدكتور: رزاق عبد الأمير مهدي الطيّار
(جامعة الكوفة – كلية التربية الأساسية)

مقدمة:

تسابقت حِكَمُ الإمام علي(ت٤٠هـ) مع أخبار شجاعته، فانتشرت في أصقاع المعمورة مترابطة مع اسمه الكريم، فأينما وجد اسم أمير المؤمنين لأبدَّ أن نجد معه قولا مأثورا من حكمه البالغة، وخبرا تليدا عن شجاعته الفائقة وإقدامه الفذ.

وفي طبيعة البشر المعتادة تنبع الحكمة عن التروي والتأمل، في حين تكون الشجاعة والإقدام قرينة للعاطفة والانفعال، فكيف يجمعهما شخص واحد؟

هذه ميزة تفرَّد بها الإمام أمير المؤمنين، فكثرة الحِكم في أقواله كانت معبرا واضحا عن نفاذ بصيرته في الأمور، وتمرسه في الحياة وطرقها، ومعرفته بمصير المخلوقات ومآلها، ومن جهة أخرى، فهي دليل واضح على تمكنه من ناصية اللغة والبلاغة، فقد جُبِل على الفصاحة، وكان كلامه صنوا للغة القرآن الكريم، حتى أنه قدَّم للناس مقدارا عظيما من التجارب والمواقف بأقوال حِكميَّة بليغة حفظت

وسارت بين الناس مسير النسيم العذب تثير فيهم مــواطن التأمــل والتــدبر، وتــدعوهم للفضــيلة وتبعدهم عن الرذيلة، وتدعوهم للاعتبار بغيرهم من الأقوام.

من الناحية اللغوية تمتاز أقوال (الحِكَم) بميزات لغويــة خاصــة فهــي أقــوال نظمــت بعنايــة فائقــة بشكل يمكنها من نقل نتـائج آلاف من التجـارب البشـرية بعبـارة بسـيطة منمَّقـة سـهلة الحفظ فـي الأذهان عذبة الجريان علـى اللسـان. ولعلَّ الناقد البصــير يجــد أن صــياغة أقــوال الحكمــة أكثــر صــعوبة مــن نظــم بيــت مــن الشــعر بــل قصــيدة كاملــة، لــذا نجــد أن الشــعراء ينظمــون بعــض القصــائد الطــوال لكــن بيــت الحكمــة فــي تلــك القصـائد يكـون فريـدا، وقـد تكـون تلـك الأبيـات (الحكميَّة) الأسرع حفظا والأكثر حضـورا بـين النـاس، ولـم نجـد فـي تراثنـا العربـي مـن الحكمـة بقدر مـا نجـده من الشـعر، فالحِكَـمُ سواء نظمت علـى شكل أبيات شعرية أو أقوال نثريـة أعزُّ من القصيد وأندر من المنظوم.

قد يفوق مـا أثـر عـن الإمـام علـي من الحِكَم مـا وصـلنا مـن حكمـاء العـرب وأدبـائهم فـي عصـر الفصاحة والبلاغة مجتمعين، فقد بلغ مجموع مـا اختــاره الشــريف الرضــي(ت٤٠٤هــ) فــي بــاب الحكم والمواعظ من كتاب (نـهج البالغة) (٣٤٤)

ثلاثمئة وأربعة وأربعين قولا، وقد تميزت تلك الأقوال بسمات أسلوبية وتركيبية خاصة كانت كتوقيع خاص من منشئ النص يدلل صراحة على نسبة تلك الحكم إليه.

وقد اختار هذا البحث (٢٨٠) مئتين وثمانين قولا مما اختاره الشريف الرضي لتكون هذه الأقوال الحكمية محورا للدراسة واستبعدت الدراسة بعض الأقوال التي هي في حقيقتها جزءا من خطب أو رسائل، واستبعد البحث أيضا بعض الفقرات التي شكلت مجاميع حكمية وسبب استبعاد هذين النوعين أننا نعتقد أنها يجب أن تدرس في بحث مستقل ذلك أن الخطب والرسائل وإن كانت تحتوي في بعض فقراتها أقوالا حكمية إلا أن تلك الأقوال ستبقى مرهونة بالسياق العام الذي وردت ضمنه، أما المجاميع الحكمية فينبغي أن تدرس على أنها وحدات كبرى لها سياقها الخاص وليس من الصحيح خلطها مع هذه الدراسة لذا تم فرزها على أمل أن نوفق إلى دراستها مستقبلا.

وجمال الحكم نابعٌ من شيئين: الأول بساطة الألفاظ ووضوحها، وثانيهما: فرادة التركيب ودقة النظم، وهذا ما يصل بها إلى المراتب العالية في درجات الجمال، فقد ربط الإمام أمير المؤمنين تلك المفردات المختارة بعناية بشبكة

من العلاقات اللغوية ما جعلها نسيجا خاصا لم يتمكن غيره من أن ينسج مثله، وقد حوَّل كما هائلا من المعاني (التجارب) إلى قول (كلام) ليصل به إلى المتلقي مغذيا به روحه ومطربا به سمعه.

ويسعى البحث جاهدا إلى الكشف عن العلاقات التركيبية التي ربطت بين المفردات في (حكم الإمام علي المجموعة في كتاب نهج البلاغة) وبيان ما تفردت به تلك الأقوال من علاقات سياقية كانت سببا في براعة القول وخلوده.

وحينما شرعت بالبحث كنت أنوي التقدم به للاشتراك في مؤتمر نهج البلاغة سراج الفكر وسحر البيان ولكن ما أن حددت الأقوال وبدأت بدراستها حتى شدني الموضوع بجماله وقيدني بسعته وتبين لي أن حجمه أكبر من بحث يقدم للمؤتمر فسعته ووفرة مادته جعلتني أنطلق فيه لأستكمله بكتاب كامل وقد وفقني الله تعالى بمنه لتلمس مواطن الجمال في كلام أمير المؤمنين وسيد البلغاء، فعقدت العزم على إتمامه لأنفق فيه أجمل الأوقات وأمتعاها أتتبع فيها جميل القول وأغوص في الحكم لأستكشف سر خلودها. وقررت ان أتقدم للمؤتمر بمبحث واحد من مباحثه ذلك هو المبحث الأول (أثر القرائن

في تكثيف معاني الجمل البسيطة) داعيا من الله التوفيق لإتمام البحث.

تمهيد: دلالة التركيب في الجملة العربية:

الجملة في اللغة هي تركيب للمفردات بعضها مع البعض الآخر وائتلاف فيما بينها لتكوين معنى معين، وقد اشترط النحاة تمام الفائدة في الجملة بل حُسنَ السكوتِ عليها قال المبرد(ت٢٨٥هـ) «الفعل والفاعل جملة يحسن السكوت عليها وتجب بها الفائدة للمخاطب» وقد دعا التلازم بين (معنى الجملة) و(تمام المعنى) أو (حسن السكوت عليها) إلى أن يصبح الكلام والجملة عند بعض النحاة مترادفين قال ابن جني(ت٣٩٢هـ): «وأما الكلام فكل لفظ مستقل بنفسه مفيد بمعناه»، وقال أبو البركات العلوي (ت٥٣٩هـ) في سبب اقتصار العرب على الاسم والفعل والحرف: «إنَّ الكلام لما كان موضوعا على الفائدة كما ذكرنا، وكان الاسم مع الاسم يأتلف فيكون منهما كلامٌ مفيدٌ نحو قولنا(زيدٌ كريمٌ، وعمرو منطلقٌ)، والفعل يأتلف مع الاسم

فيكون منهما كلام مفيد نحو قولنا(خرج بكرٌ،

وضرب عبد الله)، وكان في الجمل ما لا يصح

اتصال بعضه ببعض جاؤوا بالحروف لتربط بين الجملتين، وذلك نحو قولنا (مررت بزيدٍ)، فالباء وصلت المرور بزيد، ولولاها لما صحَّ الكلام فكملت الفائدة بالاسم والفعل والحرف، فلم يحتاجوا إلى رابع، ولم يقتصروا على اثنين.))، يتضح ما نُقِلَ أن (الكلام المفيد) يساوي (الجملة) فمعيار الفائدة هو الذي جعل الكلام المركب جملة، بل هو السبب في إنشاء الكلام ووضعه من قبل المتكلم،وهكذا نرى ابن الخشاب (ت٥٦٧هـ) يُعرِّف الكلام بقوله:((وحدُّ الكلام أنَّه جملة من الحروف المسموعة المتمايزة المفيدة فائدة تامة يحسن السكوت عليها». ولما كان الحديث عن تحصيل الفائدة من الكلام فلابد من طرح بعض الأسئلة:

من أين تأتي الفائدة في الجملة ؟

هل تأتي الفائدة من جمع المعاني المعجمية للمفردات فقط؟

هل تأتي الفائدة من تلك المعاني المعجمية للمفردات مضافا إليها معان صرفية توفرها صيغة الكلمة مثل: (فاعل، مفعول، فعَّال، مفعال، فواعل، أفعل،...إلخ) أو توفرها بعض اللواصق، مثل حروف المضارعة التي تسبق المفردة أو بعض اللواحق التي تأتي في نهاية

بعض الكلمات مثل (ـــون، ـــين، ـــان، ـات،...إلخ) ؟

هل تأتي الفائدة من رصف الكلمات(بما تحتويه من معان معجمية و صرفية) بعضها مع البعض الآخر بحسب النموذج القياسي للجمل في لغة ما؟

هل تأتي الفائدة التي يتمكن المتكلم من السكوت معها من أشياء غير هذه التي ذكرت آنفا ؟

قبل محاولة الإجابة عن هذه الأسئلة يمكن أن ننعم النظر في الكلمات المجموعة في النموذجين الآتيين:

«إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ»

الألبابِ خَلْقِ لِأولي إنَّ لآياتٍ و السماوات في الليل و الأرض و اختلاف النهار

في المجموعة الأولى وهي آية شريفة من القرآن الكريم جُمعت الكلمات المفردة على نحو مقصود، وقد روعي في الجمع على هذا النحو أشياء خاصة قرنت بعضها مع بعض فأضحت الكلمات المفردة مربوطة بشبكة من العلاقات جعلتها تفيد معنى خاصا لا يمكن الوصول إليه إلا بترتيب الكلمات على النحو التي وردت الآية به؛ فالترتيب (المقصود) لا (الاعتباطي) هو

الذي جعل دلالة الألفاظ المفردة تأتلف فيما بينها فتعطي معنى مضافا زائدا على ما كانت تدل عليه من معنى قبل ائتلافها على هذا النحو.

أما الكلمات في المجموعة الثانية فهي نفسها في المجموعة الأولى دلالاتها المعجمية لم تتغير ودلالاتها الصرفية لم تتبدل لكنها جمعت على نحو يختلف عما هي عليه في المجموعة الأولى،وباختلاف الترتيب وجمع الألفاظ على غير قصد من منشئ معين سيكون عبثا لغويا لا يفضي إلى معنى مفهوم في لغة العرب، إنَّ أيَّ اختلافٍ في ترتيب المفردات داخل الجملة سينعكس على المعنى ويقينا لن يتساوى معنى جملتين ما دام ترتيب الألفاظ فيهما مختلفا، وهذا ما أراده السيرافي(ت ٣٦٨هـ) عندما رد على متي بن يونس(ت٣٢٨هـ) حينما صرَّح أنه يكفيه من الإحاطة بلغة العرب أن يعرف (الاسم والفعل والحرف) قائلا: «أخطأت، لأنك في هذا الاسم والفعل والحرف فقير إلى رصفها وبنائها على الترتيب الواقع في غرائز أهلها» ثم أردف قائلا:«وكذلك أنت محتاج بعد هذا إلى حركات هذه الأسماء والأفعال والحروف، فإن الخطأ والتحريف في الحركات كالخطأ أو الفساد في المتحركات» إنَّ كلام السيرافي فيه إشارة واضحة على أن مما يفيد المعنى وتمامه في

الجملة قرينتان الأولى الترتيب أو (الرتبة) والثانية (الإعراب) هاتان القرينتان أساسيتان في نظم الكلام على طريقة العرب ثم إن زيادة المعنى في الجمل يأتي من خلال قرائن أخرى تضاف إلى هاتين القرينتين وعند تضافر القرائن المتعددة يمكن لمنشئ النص الاعتماد عليها واختزال عدد من الألفاظ في صياغة جملته بذلك يتركز المعنى وتزداد شحنة الدلالة في الجملة وإن كانت ألفاظها أقل من غيرها وهذه هي سمة الكلام البليغ فمع ازدياد بلاغة الكلام تتعقد شبكة العلاقات بين القرائن التي تنظم الكلام هذا ما عبر عنه الجرجاني(ت٤٧١هـ) فيما عرف بعد حين بـ(نظرية النظم).

إن تجاور الوحدات الدلالية وارتباطها فيما بينها يجعل معاني هذه الوحدات غير قابل للوصف أو التحديد إلاَّ بملاحظة الوحدات الأخرى التي تقع مجاورة لها، وقد أشار إلى هذا المعنى بوضوح عبد القاهر الجرجاني عندما رجع سبب حُسْن المعنى إلى ائتلاف الكلمات فيما بينها في التأليف والترتيب ، إذ إن معظم الوحدات الكلامية اللغوية تعتمد في تفسيراتها على السياق الذي تستعمل فيه، وإن أغلبها له مدى أوسع من مدى المعنى الذي يخطر ببال المتلقي أول وهلة.

المبحث الأول: أثر القرائن في تكثيف معاني الجمل البسيطة

عندما يريد الفرد أن يعبر عن غرض من أغراضه فإنه سيؤلف كلاما ويركب بعض المفردات رابطا بعضها مع البعض الآخر على نول معين من الأنوال المألوفة في الكلام العربي.

لا تنفك الجملة في اللغة العربية من أن تبنى من اسمين (مبتدأ وخبر) وهي الجملة الاسمية أو اسم وفعل(فعل وفاعل) وهي الجملة الفعلية فالبناء القياسي للجمل في اللغة العربية اقل ما يكون من كلمتين فقط نحو(زيد طويل) (قام زيد) وهذين النموذجين من الجمل إنما يلجأ إليه المتكلم في لغته اليومية البسيطة التي لا يجد في نفسه حاجة إلى تعقيد الدلالة فيها، ولا يقتضي الموقف الذي يريد أن يعبر عنه إلى تركيب متطور للعناصر اللغوية، والفائدة المتحققة من هذين النوعين من الجمل لاشك أنها فائدة بسيطة أولية، وعلى مستوى الدلالة فإن دلالة هذه الأنواع من الجمل غالبا ما تكون دلالة حقيقية ظاهرية وليست باطنية مجازية .

تأسيسا على ما تقدم فلنا أن نسأل قائلين:

هل يمكن أن تصاغ جمل بلاغية من مبتدأ وخبر فقط ؟

هل يستطيع حكيم من الحكماء أن يقدم خلاصة فكره، وجميع تجاربه في قول بليغ مكون من مبتدأ وخبر فقط ؟

ما وصلنا من أشعار للجاهليين وبعض الخطب لبلغاء العرب قبل الإسلام وفي صدره الأول تجيب عن هذين السؤالين بالنفي، وإن كانت تلك الأشعار أو الخطب تحوي في تضاعيفها على بعض الأبيات الحكمية لكنها أبيات كاملة مركبة من جمل طويلة مترابطة بعلاقات معقدة وليست مما نحن بصدده .

لكن أمير الفصاحة والبيان علي بن أبي طالب لم يمتنع عليه استعمال اللغة بمستوياتها المتعددة البسيطة والمركبة ليصوغ منها حكما تبقى خالدة ما مرَّ الجديدان. فلدى فحص النصوص التي اختيرت للدراسة وجدنا الإمام علي يستعمل النموذج البسيط في بناء الجملة العربية لينظم بها حكما بليغة سهلة عذبة ويتفنن في ذلك وهي على أنواع:

النوع الأول:

نظم الحكم باستعمال الجملة الاسمية البسيطة المكونة من (المبتدأ والخبر) فقط، وقد ظفرنا من هذا النوع بقولتين جسد في كل منها الإمام علي خبرة متراكمة تواضعت عليها عقول البشر وصاغها حِكما خالدة وهما:

القولة الأولى: قال الإمام علي «الرَّحِيلُ وَشِيْكٌ»
القولة الثانية: قال:«الحِلْمُ عَشِيرَةٌ»
في كل من هاتين القولتين نجد البناء النحوي للجملة مكونا من (مبتدأ) + (خبر) وكل منهما لفظة مفردة غير مضافة ولم يتعلق بها شيء آخر وعلى هذا تكون كل من القولتين قد بنيت على أبسط نول للجمل العربية تلك التي وصفناها آنفا أنها محل الحديث في لغة التخاطب اليومي بين الأفراد فكيف تسنى للإمام علي أن يطور استعمال هذا النموذج من الجمل لينظم بها الحِكَمَ ؟
لاشك إنها القرائن وأحوال التخاطب بين منشئ النص والمتلقي هي التي وفرت الأرضية المناسبة لاستعمال النماذج البسيطة للجملة العربية في المستوى البلاغي للكلام، وليس هذا بالأمر المتيسر للجميع بل أجزم أنه لم يتسنَ إلا للأفذاذ من أئمة العربية وقادتها وعلى رأسهم الإمام علي بن أبي طالب.
القولة الأولى: الركن الأول في الجملة هو المبتدأ (الرحيل) وهو:«اسم الارتحال للمسير» وقال ابن منظور:« والرحيل:اسم ارتحال القوم للمسير» ولم تستعمل هذه الكلمة في الموروث الأدبي قبل نزول القرآن – بحسب تتبعي - إلا

على معناها المادي الحقيقي أي لتدل على ارتحال القوم أو الركب من مكان إلى آخر أو انطلاق القافلة في سيرها، ولم تستعمل هذه المفردة في القرآن الكريم.

نقل الإمام علي استعمال كلمة (الرحيل) من دلالتها الحقيقية إلى مستوى آخر من الدلالة ذلك هو المجاز، والمجاز في لغة العرب أبلغ من الحقيقة ويعمد إليه المتكلم في النصوص البليغة «والاستعارة أبلغ مراتب الفصاحة»، فأطلق الإمام هذا اللفظ (الرحيل) مستثمرا كل ما يحمله في تضاعيفه من دلالات في ذهن المتلقي ليُكنِّي به عن (الموت) الذي سينقل الفرد من عالم إلى آخر، فهو لاشك كالرحيل الذي ينقل الفرد من مكان إلى مكان ومن تجربة إلى تجربة، بل من حال إلى حال، ولا ريب أن هذه المفردة لها دلالات هامشية كثيرة في ذهن العربي؛ كونه يعاني في حياته من عدم الاستقرار والتنقل طلبا للماء والكلاء، ويرافق هذا التنقل هاجس من الخوف والحسرة، الخوف من الآتي (المجهول) والحسرة على (الماضي) والأسى على فرقة ما يعتاده من ديار وأصدقاء وأحبه، فالعربي يؤرقه الارتحال، ويبعث في نفسه حسرات وأشجان على ما ترك في أيامه الخالية من مواطن قد يكون له فيها ذكريات جميلة، لطالما تمنى

العربي أن لا يفارقها، هذا المعنى ينطبق تماما مع ما يريد الإمام علي أن يشير إليه، فالحياة الدنيا ليست بدار الخلود بل هي مرحلة يعيش فيها الإنسان وسرعان ما يتركها لينتقل إلى حياة أخرى لا تنقضي قال تعالى:«**وَما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ**» والحسرة التي يعاني منها الإنسان في الدار الآخرة شبيهة على نحو ما بحسرة العربي على ما ترك من ديار قال عزَّوجلَّ:«**قَدْ خَسِرَ الَّذينَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذا جاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قالُوا يا حَسْرَتَنا عَلى ما فَرَّطْنا فيها وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزارَهُمْ عَلى ظُهُورِهِمْ أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ**}بل أكثر من ذلك فقد سمى الله تعالى يوم القيامة بأنه يوم الحسرة: «**وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ في غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ**» هذا الخليط من مشاعر الخوف والحسرة والألم واللهفة والشجن مَكَّن الإمام علي من استعارة لفظ (الرحيل) ليطلقه على الموت في نموذج فريد من القول البليغ.

أما الركن الثاني في هذه الجملة فهو الخبر (وَشِيْكٌ) وهو صيغة (فَعِيْل) من (وَشَكَ) ومعناها (السريع)، «وأمر وَشِيْكٌ أي سريع»، استعملت الكلمة هنا في دلالتها الحقيقية، إذن أخبر الإمام أن الانتقال إلى الحياة الآخرة سريع وهذا الإخبار متفق تماما مع ما جاء به القرآن الكريم

بل هو تجسيد له فقد استعمل القرآن الكريم لفظ (بغتة) في ثلاثة عشر موردا ليرسخ في ذهن الإنسان أن الانتقال إلى الآخرة وقيام الساعة والحساب سيكون بغتةً، والبغتة هي الفجأة وسبب الفجأة هي السرعة وعدم توقع حدوث الأمر بهذا الوقت القصير؛ إذ أن عيش الإنسان في صحة وعافية وامتلاكه القوة، وعدم مراعاته لقدرة الخالق جعلته يطمئن للدنيا ويحسب أنه معمرٌ طويلا فيها، وربما ظنَّ بعض الجبابرة أنهم خالدون، وإذا تفاجأهم الحياة بقصرها، وتبغتهم الساعة التي ينتقلون فيها إلى الحياة الآخرة.

لقد اعتمد الإمام على تداعيات المعنى في ذهن المتلقي فكانت هاتان الكلمتان اللتان بنى منهما جملته البسيطة التركيب لكنه أسس لقولة بليغة خالدة أضحت كحجر رمي في ماء راكد فأثار فيه حركة ولَّدت أمواجا متتابعة تبقى تدور في عقله يديرها ويفكر فيها لعله ممن يعتبر بالحكم.

من العناصر التي لها أثر في بناء هذه القولة الحِكَميَّة التماثل في الصيغة الصرفية بين اللفظتين لفظة المبتدأ (رَحِيْل) ولفظة الخبر(وَشِيْك) وكلاهما على صيغة (فَعِيْل) ولَّد هذا التماثل - فضلا عن الدلالة الصرفية التي قد تستفاد من هذه الصيغة - توازيا نغميا بين

ركني الجملة المبتدأ والخبر هذا التكافؤ أعطى المعنى دفعة من الدلالة الصوتية وكثيفا موسيقيا يتحسسه كل من يتلفظ بهذه القولة البليغة، إن هذا التوازن والتماثل النغمي بين ركني الجملة قرينة إضافية توفر قدرا من الدلالة وتعمل على تكثيف المعنى وشد السامع لذلك النغم الخفي غير المتكلف، لقد وظَّف الإمام كل ذلك في إيصال أكبر قدر من المعنى بأقل قدر من الألفاظ .

لقد بنى الإمام علي حكمته هنا على نمط الجملة الاسمية مستلهما طاقاتها وموظفا دلالتها على الاستقرار والثبوت ليعزز من دلالة قولته (الرَّحِيْلُ وَشِيْكٌ) وإذا كان علماء العربية قد قرروا أن الجملة الاسمية تفيد الاستقرار والثبوت على عكس الجملة الفعلية التي تدل على التجدد والحدوث ومزاولة الفعل فقد كان هذا العنصر عنصر دعم في بناء هذه القولة فالحكمة تنبع من رأي ثابت وخبرة مستحكمة.

إن من عناصر بناء هذه القولة (الظروف التي نطقت فيها) و(ملابسات تلقي المتلقي لها) ولئن كانت الكتابة العربية قد قصرت عن حفظ هذه التفاصيل وأفقدتنا معها كثيرا من مميزات اللغة العربية الجميلة، فإننا على يقين أن ظروف نطق الحكم دائما تكون في مواقف التأمل والروية والنصيحة والاسترشاد والعبرة، فلابد من أن

يكون هناك موقف معين دعا الإمام أن يقول هذه الحكمة ومن المؤكد أنه قالها ليعتبر بها المتلقي وإنا على يقين أن الحكم عموما تقال في مواقف هادئة بعيدة عم الانفعالات والأصوات المرتفعة، إنها لحظة سكينة يصدح فيها الإمام بحكمة من حكمه البليغة، ولا ريب أن التنغيم له أثره في بناء هذه القولة وإذا كنا لا نعلم يقينا النغمة التي تلا فيها الإمام هذه القولة للمرة الأولى، فإننا نتلمس اليوم نغمة هادئة كلما رددنا هذه الحكمة، نغمةٌ تلفها حسرةٌ على ما فرطنا في حياتنا من أوقات كان يمكن أن نفيد منها في التزود للدار الآخرة، وإذا ما أردنا أن نتخيل مخططا صوتيا لنطق هذه الحكمة فإني أراه متوازنا؛ إذ سيبدأ الصوت في الارتفاع ليصل قمته عند نهاية كلمة (الرحيلُ) وتحديدا عند صوت الضمة التي تعلو اللام ثم يعود منخفضا في كلمة (وشيكٌ)حتى ينتهي عند إكمال النطق في صوت تنوين الضم، ويمكن أن يمثل هذا الشكل مخططا بيانيا لنطق هذه القولة الحكمية.

لقد وظَّف الإمام علي إمكانات اللغة المتاحة ليبني من مفردتين بسيطتين حكمة خالدة وقد صاغها على نول بسيط ونموذج يسير من نماذج اللغة العربية ذلك هو نموذج الجملة الاسمية المكونة من مبتدأ وخبر وكل منهما لفظ مفرد،

لكن هذين اللفظين جمعا بين تضاعيفهما معان عميقة وخبرات رصينة جسدها الإمام بتلك الجملة البليغة وانتقل بمستويات اللغة من الحقيقة إلى المجاز معتمدا على تداعيات معاني اللفظ الذي اختاره وما اختزنه ذهن المتلقي من بواعث يستثيرها اللفظ كلما طرق سمع السامع، لقد اختار الإمام ألفاظه بعنايةٍ وتفردٍ في مقدرة عظيمة من صياغة الحِكَم على هذا الشكل الذي لم نعهده من قبله.

ولم يعجز الإمام أن يُعبِّرَ بصورة مطولة عما عبر به بكلمتين، فالمعنى الذي كثفه بقوله (الرحيلُ وشيكٌ) نجده في موضع آخر يفصل فيه القول فيقول في التزهيد في الدنيا: «أَلَا وَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ تَصَرَّمَتْ وَآذَنَتْ بِانْقِضَاءٍ وَتَنَكَّرَ مَعْرُوفُهَا وَأَدْبَرَتْ حَذَّاءَ فَهِيَ تَحْفِزُ بِالْفَنَاءِ سُكَّانَهَا وَتَحْدُو بِالْمَوْتِ جِيرَانَهَا وَقَدْ أَمَرَّ فِيهَا مَا كَانَ حُلْواً وَكَدِرَ مِنْهَا مَا كَانَ صَفْواً فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا سَمَلَةٌ كَسَمَلَةِ الْإِدَاوَةِ أَوْ جُرْعَةٌ كَجُرْعَةِ الْمُقْلَةِ لَوْ تَمَزَّزَهَا الصَّدْيَانُ لَمْ يَنْقَعْ فَأَرْمِعُوا عِبَادَ اللَّهِ الرَّحِيلَ عَنْ هَذِهِ الدَّارِ الْمَقْدُورِ عَلَى أَهْلِهَا الزَّوَالُ وَلَا يَغْلِبَنَّكُمْ فِيهَا الْأَمَلُ وَلَا يَطُولَنَّ عَلَيْكُمْ فِيهَا الْأَمَدُ».

ما أبان عنه الإمام بهذه الفقرة المطولة وبجمل في منتهى البلاغة استطاع ببلاغته أن يعيد

صـياغته بكلمتـين فقـط وأحسـب أن هـذا غيـر متيسر لسواه.
القولـة الثانيـة: «الحِلــْمُ عَشِـيرَةٌ» هـذه القولـة مكونـة أيضـا مـن جملـة اسـمية بسـيطة فكيـف تحولت كلمتان فقط إلى قولة حكميَّة بليغة خلدت على مرِّ السنين ؟
إذا تفحصـنا أركـان هـذه الجملـة نجـد أن ركنهـا الأول المبتـدأ (الحِلـمُ) بكسـر الحـاء وهـو الأنـاة والعقل، وجمعه أحلام وحلوم «ومن الحلم الأنـاة والتثبت في الأمور، وذلك شعار العقلاء»، لقد استعمل الإمـام الكلمـة هنـا فـي معناهـا الحقيقـي فأدخلهـا فـي بنـاء قولتـه فـي مسـتواها الـدلالي الأولـي، لكـن تلـك الدلالـة التـي أشـارت إليهـا المعاجم تأتي على مستوى اللفظة المفردة، لكنها داخل القولـة وضـمن الجملـة يضـاف إليها أشياء وأشياء.
ممـا يضـاف إلـى دلالـة اللفظـة المفـردة تطـور معناها الدلالي والمعاني الهامشية التـي اكتسبتها المفردة في استعمالات لغوية مماثلـة أو مقابلـة، ولقد استعملت مـادة (حلـم) باشـتقاقاتها المختلفـة (حِلْـم، حَلِـيم، حُلُــوم، أحلَم،...إلـخ) فـي بعـض أشـعار الجـاهلين، ووصـف بهـا بعـض سـادات القوم، وقد جاءت في أشعارهم مع صفات أخرى كالسيادة والنجابـة والمجد والجود وغيرها ، ولا

يكون الفرد حليما إلاَّ إذا عركته الدهور وصقلته السنون.

واستعملت مادة (حليم) صفة للذات المقدسة في القرآن الكريم بصورها المختلفة أحد عشرة مرَّة، منها قوله تعالى: «**وَاللّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ**» وقيل في تفسيرها «الحليم هو الذي لا يعاجل بالعقوبة، ومع ذلك فإنه لا يمتنع من إيصال الرحمة،...، والفرق «بين الصبور» وبين الحليم أن الصبور هو الذي لا يعاقب المسيء مع القدرة عليه، والحليم هو الذي يكون كذلك مع أنه لا يمنعه من إيصال نعمته إليه...» وأطلقت هذه اللفظة صفة لبعض أنبياء الله تعالى في أربع آيات منها قوله «**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ**»، إذن الحِلْمُ من صفات الكمال التي يتحلى بها الإنسان وتستدعي معها جملة من الكمالات الأخرى كالصبر والجود والأناة والهدوء والسكينة والتثبت من الأمور وتمام العقل، كل هذه المعاني تدور بهامش هذه المفردة وإنما صارت تحوم في فلكها نتيجة لتلازم استعمالها معها في قولات عديدة سابقة حتى صارت تطوف في الخيال كلما استعملت هذه المفردة فأضيفت هذه المعاني من طرف خفي إلى دلالة القولة.

أما الركن الثاني في هذه الجملة فهو الخبر (عَشيرةٌ) والعشيرة القبيلة ، هنا ينتقل الإمام علي إلى المجاز فيرتفع بالقول إلى مستوى البلاغة، فالعشيرة (التي هي مجموعة أفراد تربطهم فيما بينهم صلة الرحم والقرابة والدم) لا تساوي (الحِلْم) لأن الحِلْمَ اسم لمعنى في حين العشيرة اسم لذات، فلا مجال للمستوى الدلالة الحقيقي هنا بل انتقل الكلام إلى مستوى المجاز؛ إذ صاغ الإمام قولته بتشبيه بليغ حاذفا أداة التشبيه ووجه الشبه من الكلام وجعل المشبه والمشبه به مبتدأ وخبرا ليضفي على العلاقة بينهما مزيدا من المشاركة في الدلالة وبحسب ما تتوافر عليه ذهنية المتلقي للمعاني الهامشية لكلا الكلمتين.

فما المعاني التي ممكن أن تضاف إلى القولة من هذا الربط بين المفردتين ؟

أشار البحث آنفا إلى المعاني الهامشية للفظ (الحِلْم) ونشير هنا إلى مجموعة من المعاني الهامشية التي تصاحب لفظ (العشيرة) فالعشيرة عزٌّ الفرد في المجتمعات القبلية حتى ورد من أدعية العرب قولهم:«أسألك الغفيرة، والناقة الغزيرة، والعزَّ في العشيرة» فمكانة المرء في هذه المجتمعات تكمن في مقدار حظوته في العشيرة ويعزُّ الفرد كلما كانت عشيرته عزيزة

كريمة وحسبنا أن نتذكر هنا بيت قريط بن أنيف (جاهلي) وهو من أبيات الحماسة:

(البسيط)

لو كنت من مازنٍ لم تستبح إبلي

بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا

إذن لقــام بنصري معشــرٌ خُشُنٌ

عنـــد الحفيظـــة إن ذو لُوثـــةٍ لانا

فالمنعة عند العرب مقترنة بالعشيرة فكلما كانت العشيرة منيعة كان الفرد مصانا في ماله وعرضه ومهابا بين الناس، و«الحِجْزُ العشيرة تحتجز بهم أي تمتنع»، فالعشيرة الحاجز والمانع من الاعتداء على الفرد فهم ستره، وقيل: «الركنُ العشيرةُ» وقيل في تفسير قوله تعالى على لسان لوط:{قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ} أي عشيرة عزيزة أو كثيرة لأنه كان غريبا عن قومه، والعشيرة مانعة للرجل عن الشطط لأنها تحكمه بأعرافها وسطوتها فللعشيرة سطوة واحترام.

لقد نسج الإمام علي خيوطا متشابكة بين هذه المعاني التي ترافق لفظة (العشيرة) وتلك المعاني التي رافقت لفظة (الحلم) فولّد منهما حكمة بليغة نعم تركيبها الإسنادي بسيط لكن دلالاتها متحركة تتحرك مع كلِّ فرد يتلقى هذه القولة بل إن الفرد نفسه إذا تلقاها مرة ومرتين

وثلاث يستنبط منها دلالات متعددة ولا تولد عنده ملا بل معناها يتجدد، فالحلم والتأمل والتروي دافع لعدم العجلة والانتظار إصدار الأحكام فهو مدعاة إلى قلة الخطأ، ومن هنا سيكون الحليم عصمة لأهله يعصمهم من الزلل والاعتداء ويمنعهم من الطيش والاعتداء، وهكذا تبقى المعاني تتحرك في ذهن المتلقي وتتوالد كلما تلقى قولة الإمام (الحِلْمُ عَشِيْرَةٌ)، وصياغة الجملة بصيغة الجملة الاسمية بما تعطية من دلالة الاستقرار والثبوت يضفي دلالة مساعدة على القولة الحكمية فكون الحلم مانع وحاجز من الزلل وعاصم من الخطأ والتعدي مما استقرت عليه سنن البشر وهو ثابت في مجتمعاتهم أجمع الحليم عاصم لقومه ونفسه عن التعدي والظلم وهذه العصمة والمنعة مستقرة في نفس الحليم.

إن هذا النول من الجمل بسيطة التركيب يكون أشدَّ امتناعا على البلغاء إذا ما حاولوا أن يصوغوا منه حكما، ولم نسمع عن حكيم من حكماء الجاهلية أو صدر الإسلام نظم حكمة شعرا أو نثرا من كلمتين فقط تربطهما علاقة (مسند ومسند إليه) لكن أمير الفصاحة والبيان تنقاد البلاغةُ بين يديه، ولا يعجزه شيء منها ولا أقول أنه قصد إلى هذا النوع من النظم قصدا وتكلفه تكلفا، بل جاء منه عفو الخاطر، فالفكرة

والخبرة وتجربة الحياة راسخة في ذهنه (عليه السلام) والقول تبع للمعنى يتعقد أو يسهل تماشيا معه.

وإذا أردنا إعادة التنبيه على القرائن التي وظفها الإمام علي لتكثيف المعنى في الأقوال الحكمية التي بنيت جملها على أبسط نموذج في لغة العرب فنقول:إنه أفاد من ربط الدلالات الهامشية للمفردة مع الدلالة المعجمية لها ثم أفاد من تطور دلالة المفردة وربط هذه الدلالات المنوعة للمفردات بروابط إسنادية فأنشأ بينها علاقات تركيبية ليخبر عن المبتدأ بهالة من المعاني، ثم وظف التناغم الصوتي وأحدث توازنا صوتيا من خلال استعمال صيغة صرفية متشابه في كل ركن من ركني الجملة، البساطة في تركيب الجملة الأولى كان لها دلالتها فهي تتماشى مع الهدوء المصاحب للرحيل، وكذا البساطة في بناء الجملة الثانية كان منسجما تماما مع الحلم والتروي المصاحب له، اختياره لنموذج الجملة الاسمية دون الفعلية كان متلائما مع استقرار الأخبار التي أخبر عن المبتدأين بها فهي ثابتة لتلك المعاني التي وصفها.

هذه العناصر وكثير غيرها وظفها الإمام لتكثيف معنى جملة بسيطة النظم لينشئ منها قولة حكمية تبقى خالدة منذ ما يزيد على ثلاثة عشر قرنا.

إن ما رصدناه من أقوال حكمية من هذا النوع قولتين فقط لكن هاتين القولتين كانت كل منهما تحدٍ كبير لمن أراد أن ينظم مثلهما وأستطيع أن أزعم أن الإمام علي أول من نظم أقوالا حكمية على هذا الشكل من الجمل البسيطة التركيب.

النوع الثاني:

نظم الحكم باستعمال الجملة الاسمية البسيطة المكونة من (المبتدأ والخبر) أيضا لكن الخبر يكون اسما مضافا ثم يلحق به اسم آخر مضافا إليه، فيكون مجموع كلمات الجملة ثلاث مفردات وهي أطول قليلا من النوع الأول الذي تقدم الحديث عنه. وقد ظفرنا من هذا النوع باثنتي عشرة قولة حكميَّة:

القولة الأولى: قَالَ: «الْمَالُ مَادَّةُ الشَّهَوَات»

القولة الثانية: وَقَالَ «الشَّفِيعُ جَنَاحُ الطَّالِب»

القولة الثالثة: وَقَالَ «الْعَفَافُ زِينَةُ الْفَقْر»

القولة الرابعة: وقَالَ «الْهَمُّ نِصْفُ الْهَرَم»

القولة الخامسة: وَقَالَ «الْفَقْرُ الْمَوْتُ الْأَكْبَرُ»

القولة السادسة: وَقَالَ «الطَّمَعُ رِقٌّ مُؤَبَّد»

القولة السابعة: وَقَالَ «الْخِلَافُ يَهْدِمُ الرَّأْي»

القولة الثامنة: وَقَالَ «الْقَلْبُ مُصْحَفُ الْبَصَر»

القولة التاسعة: وَقَالَ «التُّقَى رَئِيسُ الْأَخْلَاق»

القولة العاشرة: وَقَالَ «الْوِلَايَاتُ مَضَامِيرُ الرِّجَال»

القولــة الحاديــة عشــرة: وَقَــالَ «الْغِيبَــةُ جُهْــدُ الْعَاجِزِ»
القولة الثانية عشرة: وَقَالَ «الْعَيْنُ وِكَاءُ السَّه»
بُنِيَت هذه القولات كلها على نهج واحد:
جملة اسمية بسيطة مكونه من: مبتدأ (اسم مفرد) + خبر (اسم مضاف ثم اسم مضاف إليه).
وهذا البنـاء فيـه تطـور قليل عـن النمـوذج الأول فالخبر فيه مكون من كلمتين تـربط بينهمـا علاقـة الإضـافة، ومـع أن النحـاة قـرروا أن المضـاف والمضــاف إليــه كالكلمــة الواحــدة ولــم يجيــزوا الفصـل بينهمـا بـأجنبي، إلا أن الدلالـة لا تعـرف هذا الحكم فكل من الكلمتين لـه دلالتـه المعجميـة المستقلة، ثـم هنـاك علاقـة الإضـافة التـي ستربط بـين كلمتــي الخبـر بربـاط خـاص، ففضـلا عـن العناصـر التـي وظفهـا الإمـام فـي النمـوذج الأول لتكثيف معنـى الجملـة تـوافرت لديـه هنـا عناصـر إضافية أخرى.
ويستمر البحث بدراسة هذه النماذج وتليها نمـاذج أخـرى تتقلـب بينهـا الجملـة فـي صـياغات متعـددة مستثمرة طاقات اللغة وتوظفها في صياغة أقوال حكمية كانت القمَّة في هذا الفن، ثـم ينتقل البحـث لدراسـة علاقـات بنائيـة أخـرى لهـا تأثيرهـا ففـي تكثيف المعنى وبيانه فيدرس:
دلالة الجملة الاسمية والجملة الفعلية

كسـر بنـاء الجملـة القياسـي مـن خـلال التقـديم والتأخير
التقابل والمخالفة
التراكم وأثره في تركيز الفكرة
ختامـا أدعـو الله أن يـنعم علـيَّ بتمـام البحـث والتوفيق فيه، إنه سميع مجيب.